علاء الدين
أو المصباح العجيب

(١)

كَانَ يعيشُ فى قَدِيمِ الزَّمَانِ ، فى إحدى مُدنِ الصِّينِ الغَنيةِ الزَّاخِرَةِ خياطٌ فقيرٌ يُدعَى « مُصْطَفى » . وكَانَ يلاقى الأمَرَّيْنِ فى سبِيلِ الحُصُولِ عَلَى قوتِهِ وقوتِ زَوْجِهِ ، وابْنِهِمَا « عَلَاءِ الدينِ » .

وكَانَ « عَلَاءُ الدينِ » هٰذا ، ولداً مهملاً ، كسُولاً ، يقضى يَوْمَهُ ، منَ الصباحِ إلى الغُروبِ ، فى اللهْوِ واللعِبِ ، بيْنَ الشَّوارعِ والأزِقةِ ، مَعَ الأَطفَالِ الذينَ هم منْ سِنِّهِ وعَلَى شاكلَتِهِ .

وحَاولَ أبوهُ عِدَّةَ مراتٍ ، أنْ يُلحِقَهُ بعملٍ منَ الأعْمَالِ ، فلمْ يُفلحْ ، لأنهُ كانَ لا يستقرُّ فيهِ ، بلْ يَعمِدُ إلي الهروبِ ، مُفضِّلاً ، اللهْوَ والعَبثَ فى شَوارعِ المَدينةِ ، عَلَى أىِّ شَيْءٍ آخرَ . وكَانَ أبوهُ يؤنِّبهُ كثيراً ، ولكنْ بدونِ جدوى . فاشْتدَّ يأسُ أبيهِ ؛ وزَادَ بهِ الغَمُّ عَلَى

مَا وَصَلَتْ إليهِ حَالَةُ ابْنهِ ؛ فماتَ ساخِطاً عَلَيهِ ؛ تارِكاً إيَّاهُ يلهُو ويَعْبثُ كما يَشاء .

وَمرَّتِ السُّنُونَ ؛ وَ « عَلاءُ الدينِ » لا يقلعُ عَنْ لَهْوِهِ وَفسادِهِ وَلا يَسْمَعُ نصْحَ أمِّهِ ؛ ولا يُطيعُ لَها أمْراً . وَذاتَ يَوْمٍ ؛ بيْنَما كَانَ « عَلَاءُ الدينِ » يلْعَبُ فى الشارعِ ؛ معَ أصدقائهِ ؛ كَعَادَتِهِ ؛ إذْ وَقفَ رجلٌ غريبٌ ؛ وأخذَ يتأملُ الصِّبْيَةَ ؛ وَيتفَرَّسُ فيهِمْ كَمَنْ يَبْحَثُ عنْ صَبِيٍّ خاصٍّ ؛ وكأنَّهُ وَجدَ ضَالَّتَهُ فى « عَلَاءِ الدينِ » ؛ فسَألَ أحَدَ الصِّبْيَةِ ؛ عَنْ اسْمِهِ وكلِّ مَا يتعلَّقُ بهِ ؛

مِنْ دُونِ أنْ يَلتفِتَ إلَيْهِ أحَدٌ . ولَما أُحِيطَ عِلْماً بِكلِّ مَا أرادَ ؛ تقدَّمَ إلى « عَلَاءِ الدينِ » ؛ وَانتحَى بهِ جانباً مِنَ الشارعِ ؛ ثم قالَ لَهُ : « يا بُنىَّ ! ألَمْ يكنْ أباكَ مُصطفى الخيَّاطُ ؟ »

فقالَ لَهُ الوَلَدُ: «نَعَمْ يا سَيِّدي! وَقدْ ماتَ مُنْذُ أَمَدٍ بَعيدٍ!» عِنْدَ ذَلِكَ؛ طَوَّقَ الرجُلُ الوَلَدَ بِذِراعَيْهِ ثم قَبَّلَهُ، قائلاً في تأثُّرٍ شَديدٍ: «لَقَدْ عَرَفْتُكَ؛ بِمُجَرَّدِ أَنْ وَقَعَ بَصَري عَلَيْكَ!! فأنا عَمُّكَ!! وأبوكَ أخي!! وإِنَّكَ لَشَديدُ الشَّبَهِ بِهِ! رَحِمَهُ اللهُ!» ثُمَّ تَناوَلَ مِلْءَ يَدِهِ نُقوداً وأعْطاها إيّاهُ، قائلاً: «خُذْ هٰذِهِ النُّقودَ لأُمِّكَ؛ وَبَلِّغْها عَنِّي تَحِيَّتي. وَقُلْ لَها إِنِّي سَأَزُورُكُم غَداً صَباحاً؛ لأَرَى مَنْزِلَ أخي». ثم انْصَرَفَ.

أمّا «علاءُ الدين» فَقَدْ جَرَى إلى مَنْزِلِهِ؛ حَيْثُ لَقِيَ أُمَّهُ فقالَ لَها: «هَلْ لِي عَمٌّ يا أُمّاهُ؟ لَقَدْ قابَلَني شَخْصٌ؛ وسأَلَني عَنْ وَالِدي؛ وَلَمّا أخْبَرْتُهُ بِوَفاتِهِ؛ بَكَى وَقَبَّلَني؛ ثم أعْطاني نُقوداً؛ لأُعْطِيَكِ إِيّاها؛ وَوَعَدَ بِزِيارَتِنا غَداً.»

فَقالَتِ الأُمُّ: «وَلٰكِنْ يا بُنَيَّ، أنا لا أعْلَمُ أَنَّ لَكَ عَمّاً! وَلا خالاً! فَمَنْ يا تُرَى يَكُونُ هٰذا الرَّجُلُ؟»

وَفي اليَوْمِ التالي، جاءَ ذلِكَ الشَّخْصُ الغَريبُ، إلى حَيْثُ كانَ علاءُ الدِّينِ يَلْعَبُ مَعَ رِفاقِهِ؛ فَناداهُ، وَأَعْطاهُ دِينارَيْنِ ذَهَباً، قائلاً: «اذْهَبْ إلى أُمِّكَ، وَأَعْطِها تِلْكَ النُّقودَ لِتُجَهِّزَ بِها عَشاءً؛ فَسَوْفَ أحْضُرُ لِقَضاءِ السَّهْرَةِ مَعَكُمْ.» وَقَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ علاءُ الدِّينِ، طَلَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَنْزِلِهِ، فَفَعَلَ.

وَقَصَدَ علاءُ الدِّينِ إلى مَنْزِلِهِ، فَرِحاً مَسْرُوراً وَقَدَّمَ الذَّهَبَ إلى أُمِّهِ قائلاً: «هَيّا يا أُمّاهُ، قُومي وَدَعِينا نُجَهِّزُ عَشاءً فاخِراً لِعَمِّي، فَهُوَ قادِمٌ اللَّيْلَةَ، لِيَسْهَرَ مَعَنا». فَقامَتِ الأُمُّ، وابْتاعَتْ دَجاجاً ولَحْماً وفاكِهَةً؛ وَأَعَدَّتْ عَشاءً شَهِيّاً؛ بَعْدَ أَنْ اسْتَعارَتْ مِنَ الجِيرانِ كُلَّ ما يَنْقُصُها مِنْ أَدَواتِ المائِدَةِ. وَظَلَّتْ في انْتِظارِ الزّائِرِ الكَريمِ. وفي المَساءِ وَصَلَ الضَّيْفُ يَحْمِلُ الهَدايا مِنْ فاكِهَةٍ وحَلْوَى، وَاسْتَقْبَلَهُ علاءُ الدِّينِ، وَهُوَ يَكادُ يَطِيرُ فَرَحاً، ثُمَّ قادَهُ إلى حَيْثُ تَنْتَظِرُهُ أُمُّهُ.

فَحَيّاها الرَّجُلُ قائلاً: «السَّلامُ عَلَيْكِ يا سَيِّدَتي، كَيْفَ حالُكِ الآنَ؟ إِنَّ هٰذِهِ الدّارَ تُثيرُ فِيَّ الأشْجانَ والآلامَ؛ فَهِيَ تُذَكِّرُني بِأَخي العَزيزِ! يا لَلّهِ! لَقَدْ قَضَى مِنْ دُونِ أَنْ أَراهُ!» عِنْدَ ذلِكَ انْحَدَرَتْ عَلَى خَدَّيْهِ دُمُوعٌ لا يَشُكُّ أَحَدٌ في أَنَّها صادِرَةٌ عَنْ

قلبٍ حزينٍ . ثُمَّ التفتَ إلى الأمِّ ، سائلاً : « وأينَ كانَ يجلسُ أخي ؟ » فأشارتِ الأمُّ إلى مقعدٍ في الغرفةِ قائلةً : « هنا كانَ يجلسُ زوجي العزيزُ ! » فانحنى الرَّجُلُ وقبَّلَ المكانَ ثُمَّ قالَ : « ليتكَ هنا اليومَ يا أخي ! إذنْ لحظيتُ بقُربِكَ ، ونعِمتُ بحديثِكَ ! »

وبعدَ قليلٍ قامَ الجميعُ إلى الطَّعامِ وجعلَ الرَّجُلُ يقصُّ على الأمِّ تاريخَهُ قائلاً : « لا بُدَّ أنَّكِ قدْ دُهشتِ، عندَ ما سمعتِ بأنِّي أخو زوجِكِ العزيزِ ! لأنَّكِ لمْ ترَيْني قبلَ الآنَ . والواقعُ أنِّي تركتُ هذهِ البلادَ منذُ أربعينَ عاماً ، زُرتُ في أثنائها الهندَ والعجمَ ومصرَ والشَّامَ ، وجمعتُ ثروةً طائلةً ؛ وأخيراً عوَّلتُ على الرُّجوعِ إلى الوطنِ لرؤيةِ أخي ! وإنِّي لأحمدُ اللهَ ، إذْ وجدتُ ابنَهُ « علاءَ الدِّينِ » فهوَ عزائي وسلْوتي بعدَ أبيهِ ! » ثُمَّ التفتَ إلى علاءٍ ، وسألَهُ : « وأنتَ يا ابنَ أخي هلْ تشتغلُ في عملٍ ما ؟ »

فطأطأَ الولدُ رأسَهُ خجلاً ، ولمْ يُحِرْ جواباً ؛ فقالتِ الأمُّ : « إنَّهُ ولدٌ كسولٌ ومُهمِلٌ يا سيِّدي ! يعلَمُ فقرَنا وحاجتَنا ، ومعَ ذلكَ لا يَسعَى إلى العملِ ولا يفكِّرُ فيهِ ؛ لقدِ احترتُ في أمري وأمرِهِ ! »

فقالَ الرَّجُلُ غاضباً : « لا يليقُ بكَ هذا يا ابنَ أخي ! لا بُدَّ منْ عملٍ ترتزقُ منهُ . وإذا كُنتَ تكرهُ الصِّناعةَ ، فأنا أساعدُكَ على فتحِ محلٍّ للتِّجارةِ ، تعيشُ منْ مكسبِهِ عيشةً شريفةً ؛ فهلْ توافقُ ؟ »

فقالَ علاءُ الدِّينِ : « شُكراً لكَ يا عمِّي ! سأعملُ ما تُشيرُ بهِ . »

فقالَ الرَّجُلُ : « حسَناً جدّاً ، إذنْ أمُرُّ عليكَ غداً ؛ لأشتريَ لكَ بعضَ الملابسِ ؛ ثُمَّ أقدِّمُكَ لبعضِ تُجَّارِ المدينةِ ؛ تمهيداً لفتحِ المحلِّ التِّجاريِّ الَّذي تريدُ . »

فقالتِ الأمُّ ، ولمْ يبقَ لديها شكٌّ ، في أنَّ الرَّجُلَ شقيقُ زوجِها : « كمْ أنا شاكرةٌ لفضلِكَ يا سيِّدي ! اللهُ يجزيكَ عنَّا خيرَ الجزاءِ ! »

فقالَ الرَّجُلُ ، وهوَ منصرفٌ : « لمْ أفعلْ يا سيِّدتي ، إلاَّ ما يجبُ عليَّ نحوَ ابنِ أخي » .

وفي اليومِ التَّالي ، جاءَ الرَّجُلُ كما وعدَ ، واصطحبَ معَهُ علاءَ الدِّينِ إلى أحدِ المحالِّ التِّجاريَّةِ ، وابتاعَ لهُ ملابسَ فاخرةً منْ

جريرٍ ، ثُمّ طافَ بهِ بَعضَ أحياءِ المَدينةِ العامرةِ ، وبَعضَ الأسواقِ التِّجاريّةِ الكَبيرةِ . وفي المَساءِ أقامَ وَليمةً عظيمةً ، دعَا إليهَا التجارَ ، ليُتيحَ لابنِ أخيهِ فُرصةَ التّعارُفِ بِهِمْ . ثُمّ صَحِبَهُ في نهايةِ السّهرةِ إلى مَنزلِهِ ، وَودّعهُ قائِلاً : « غداً ، نَختارُ المكانَ ، ونَشتري البضائعَ وتَبدأُ عَملَكَ الجَديدَ » .

وفي صَباحِ اليَومِ التّالي ، جاءَ الرّجلُ إلى مَنزلِ « علاءِ الدينِ » وعرضَ عليهِ أنْ يطُوفَا بَعضَ أحياءِ المَدينةِ ، للبَحثِ عنْ مَكانٍ مُناسبٍ . فأخذا يَنتقلانِ مِنْ شارعٍ لآخرَ ؛ حتّى وصلا إلى طرفِ المدينةِ ، حيثُ الحَدائقُ والمُتنزّهاتُ !

وهُنا التفتَ الرّجُلُ إلى علاءِ الدّينِ قائلاً : يا علاءُ !! لابُدّ أنْ يَكونَ قدْ أجهدَكَ السّيرُ !! لِنَسترِحْ هُنا قليلاً ؛ ولنأكلْ بَعضَ ما مَعَنا مِنَ الفَطائرِ والحَلوى ؛ قبلَ أنْ نَعودَ . ثُمّ أخرجَ الرّجُلُ مِنْ بَينِ مَلابسِهِ مِنديلاً بِهِ فاكِهةٌ وفطائرُ ، وَوضعَهُ على الحَشائشِ ؛ قائِلاً : « كُلْ يا بُنيّ ! ولا تَنسَ على الدّوامِ ، أنْ تكونَ مُطيعاً لأمري ؛ فأنا لا أبغي إلا أنْ تكونَ رَجُلاً ثريّاً عالِيَ الذّكرِ ، مِثلي ! » فوَعدَهُ علاءُ الدّينِ أنْ يكونَ طَوعَ بَنانِهِ ! في كُلِّ ما يأمُرُهُ بِهِ ؛ لِينالَ بذلكَ رِضاهُ . ثُمّ أمرَهُ أنْ يَجمعَ بَعضَ الأعشابِ الجافّةِ فجمعَها علاءُ الدّينِ وأخذَ الرّجُلُ يُشعِلُ النّارَ فيهَا ......

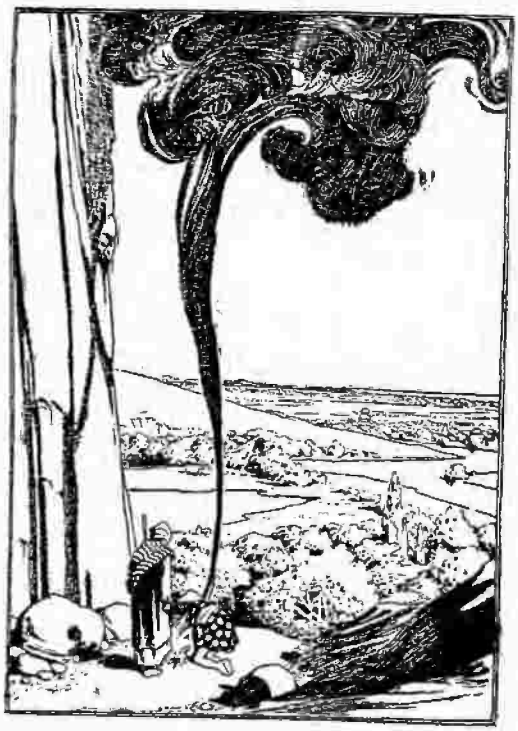

وأخذ الرجل يشعل النار فيها

(يتبع)